الشاهد البلاغي في كتاب الإيجاز للعلوي

L’exemple rhétorique dans le livre «Al IJAZ» d'Al-Alawi

عائشة زايدي *
جامعة باجي مختار – عنابة (الجزائر)
Slimaniaicha816@gmail.com

أ.د عمر لحسن
جامعة باجي مختار – عنابة (الجزائر)
dr.lahcenamor@gmail.com

تاريخ الإرسال :2022-07-29	تاريخ التقييم:2022-11-11	تاريخ القبول:2022-12-30

ملخص :

إذا كان النحو قواعد وشواهد، ففي البلاغة كذلك يجب أن تكون الشواهد آية في الفصاحة والبلاغة. لذلك حرص المصنفون القدامى على أن تكون شواهدهم على تلك الصورة، ولم يجدوا أفضل من كتاب الله العزيز تتمثل فيه تلك السمات، لأن المعيار الحقيقي في الاحتجاج هو معيار الفصاحة والصفاء والسلامة من الفساد، فلا يحتجُ بمن لابس الضعف لغته وخالطت العجمة كلامه. وكان هذا المعيار كفيلا بإرساء مواطن الجمال والذوق في البلاغة على دعائم ثابتة قوية نقطف ثمارها في نتاج بلاغي غني بالشواهد، سواء في علم المعاني أم البيان، أم البديع.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الشاهد، البلاغة، الاحتجاج، التمثيل.

Abstract:

If grammar is rules and proofs, so is rhetoric, then proof is meant to be the pinnacle of eloquence and rhetoric, so the ancient writers insisted on their proof being in this form, and they have found no better than the Holy Book of God in which these characteristics are represented, for the true standard of argument is the standard of eloquence and purity, and protection from perversion, thus he who bears weakness in his language and mixes his words with nonsense cannot be an example to follow, and this criterion was sufficient to lay the places of beauty and

* - المؤلف المراسل.

taste in rhetoric on strong and firm pillars, from which we reap the fruits in a rhetorical product rich in evidence, whether in the science of meanings or in the art of tropes, or the art of schemes.

Keywords: Koran, example, rhetoric, contestation, representation

- مقدمة:

إنّ البحث في موضوع الاستشهاد أو الشاهد قديم وضارب في عمق التاريخ والتدوين، باعتبار الشاهد قيمة مضافة إلى عناصر التخاطب، وآلة من آليات الإقناع، فقد بدت أولى محاولاته في صورة ملحوظات في أواسط القرن الثاني الهجري، وهي محاولات تجسد فكرة الاستشهاد في أذهان العلماء القدامى، وإحساسهم بضرورتها المنهجية في كل عمل يستهدف تدوين التراث وحفظه، وصيانته.

- جهود العلماء في دراسة الشاهد

ظلت فكرة الاستشهاد هاجسا يؤرق علماء العرب إلى أنّ نضجت في أذهان بعضهم، فتجلت في كتبهم في شكل نظرية، لها حدود وضوابط،وأسس تقوم عليها،لكنها مع ذلك قصرت عن إضاءة كثير من جوانب موضوع الاستشهاد، إضافة إلى أنها بقيت حبيسة البحث اللغوي والنحوي، دون تجاوز ذلك إلى مجال الأدب والنقد،والبلاغة.

وإذا ما رمنا التمحيص والتدقيق فيما بسطه البحث في فكرة الاستشهاد منذ القديم إلى الآن، يمكن الخلوص إلى أنّه خطا خطوات مختلفة من مرحلة إلى أخرى اتباعا، وإذا ما تتبعنا جهود الباحثين في الشاهد أو الاستشهاد أمكن تصنيفها إلى عدة أصناف بحسب جنس الشاهد نفسه، ثم بحسب المجال المعرفي المقترن به.

فنقف في الأول عند الشاهد الشعري، والشاهد القرآني، والشاهد المنثور، والشاهد الحديثي، وغيرها،بينما نقف في الشاهد المنثور على جهود العلماء والباحثين في الشواهد في علوم التفسير،والحديث النبوي الشريف، والنحو، والصرف، واللغة، والشروح والنقد، والبلاغة، والعروض والقافية والأدب عامة، فلا يكاد مجال معرفي من العلوم

الإنسانية يشذ عن طوق هذه الجهود. ثمة مصطلحات تتداخل أو تقترب بدرجة أو أخرى من مصطلح الشاهد، بشكل يدعونا إلى التمييز بينها ووضع الحدود لها.

أولا: تعريف الشاهد:

والشاهد من الفعل:""شهد" ومصدره شهادة"[1]

الشاهد لغة: " الشاهد: شهيد ويجمع على شهداء والشاهد اللسان، أو الملك وهو العالم الذي يبين ما علمه والشهادة: خبر قاطع، واستشهده سأله أن يشهد"[2]

الشاهد اصطلاحا: هو قول عربي شعرا أو نثرا قيل في عصر الاحتجاج وهو بعبارة أخرى جملة من كلام العرب أو ما جرى مجران كالقرآن الكريم، تتسم بمواصفات معينة... وتقوم دليلا على استخدام العرب لفظا أو معنى أو نسقا في نظم أو كلام[3] وعليه يمكن القول إنّ الشاهد في الاصطلاح: هو ما يؤتى من الكلام العربي الفصيح، ليشهد بصحة نسبة لفظ أو صيغة أو عبارة أو دلالة إلى العربية، وللشواهد في العربية أهمية بالغة وملحة، حتى لا ينسب إلى اللغة ما ليس منها، لأن ذلك سيترتب عليه فساد في الأحكام إما النحوية أو البلاغية وحتى الدينية.

ورد في أساس البلاغة للزمخشري: "شهدته وشاهدته، وشوهدت منه حال جميلة ومجلس مشهود، وكلمته على رؤوس الشهود وهم شهودي وشهدائي، والله يشهد لي، ولا استشهده كاذبا، وهو من أهل المشهد والمشاهد... وامرأة مشْهِد خلاف مغيبة، وقد يقال مشهدة ومغيب..."[4].

فالشاهد في اللغة يقصد به الحاضر لا الغائب، والحضور دليل الوجوه والأثر والهوية يملك ثقلا إذا تعلّق الأمر بتمييز الجيد من الرديء، أو يعتقد عليه ففي تبرير موقف ما.

ويعرف المعجم الوسيط الشاهد اصطلاحا كالتالي: "الشاهد من يؤدي الشهادة والدليل"[5] أما الشريف الجرجاني فيقول إنّ الشاهد: "في اصطلاح القوم عبارة عما كان حاضرا في قلي الإنساني وغلب عيه ذكره، فإن كان الغالب عليه فهو شاهد العلم، وإن كان الغالب عليه الوجد فهو شاهد الوجد، وغن كان الغالب علي الحق فهو شاهد الحقّ"[6]

ويعرف الشاهد أيضا بوصفه "قصة موجهة استخدامها كدعامة تبريرية"[(7)]،وليس التعريف الاصطلاحي للشاهد في علوم اللغة ببعيد عن هذا المعنى. فالاستشهاد عند النحاة هو: "الإخبار بما هو قاطع في الدلالة على القاعدة من شعر أو نثر"[(8)].

فهو الدليل الذي يثبت قاعدة أو يحتجّ به على رأي،هذا في مجال النحو.وإلى ذات المعنى سار بعض الباحثين البلاغيين في تعريفهم للشاهد البلاغي من أنّه:"ما يستبين ويقطع به ويقضى من آيات الذكر الحكيم أو أحاديث الرسول- صلى الله عليه وسلم- أو أقوال نثرية، أو أبيات شعرية، لإثبات قاعدة بلاغية"[(9)].

ولعل أمر الشواهد في البلاغة على غير حاله في النحو"فيقطع به ويقضى على قاعدة بلاغية، أو يكون لإثباتها، وإنّما الأصل للشاهد في البلاغة أن يكون نموذجا ومثالا وبيانا للباب البلاغي الذي يعرض له.

ومن ثم كان تعريف الدكتورة نجاح الظهار للشاهد البلاغي بأنّه :"كل ما يستشهد به البلاغيون من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأقوال نثرية أو شعرية لتوضيح وبيان قاعدة بلاغيّة"[(10)]

فالشاهد في كتب البلاغة –أيّاً كان نوعه- هو النموذج الذي تحيا فيه الأصول والقوانين البلاغية، وينبض بها. وثمة مصطلحات تقترب في مدلولها وتوظيفها من مصطلح الشاهد،والاستشهاد من مثل: التمثيل والاحتجاج والاقتباس .

أما الاحتجاج فيكاد يكون مرادفا للاستشهاد بتعريفه النحوي المبني على أنّ الشاهد هو الدليل على القاعدة النحوية، ومن ثم فالاحتجاج والاستشهاد"يتلاقيان في مجرى واحد هو:سوق ما يقطع ويبرهن على صحة القاعدة أو الرأي"[(11)]. إلا أنّ الفرق بينهما كما أوضح الدكتور محمد عيد،"أنّ الاحتجاج يحمل معنى "الغلبة" لما يحتجّ به على غيره. والاحتجاج على هذا المعنى"[(12)].

وهذا المصطلح -الاحتجاج- ينشط في مجال النحو أكثر منه في البلاغة، لتعدد المدارس النحوية والاتّجاهات والآراء المتباينة التي يعوز كل منها الدليل والبرهان، أو الحجة على صحة قوله وغلبة رأيّه، بينما لم تتجل في البلاغة القديمة هذه المنهجية القائمة على

الرأي والرأي الآخر، والخلاف والاحتجاج والاستدلال والبرهنة بالصورة التي كانت عليها في علم النحو. ولعل ذلك لسبق التأصيل لعلم النحو بقرون عن البلاغة حين استوت علما، وأيضا لأنّ مجال المعاني، التي هي عماد البلاغة أرحب وأوسع من مجال الألفاظ التي لا تحتمل إلا الصواب أو الخطأ، ممّا يعزز فرصة الاختلاف. والحقيقة أنّ تلك الاختلافات والمدارس المتباينة الاتجاهات والآراء لم تكن من سمات البلاغة العربيّة، وإنّما كان نهجها التطور، ونمو المصطلحات وتطبيق حدودها عصرا بعد عصر.

ومن ثم، فالاحتجاج مصطلح نشأ وترعرع في بيئة النحو، في حين كان لمصطلح "التمثيل" صدى في مجال البلاغة أوسع ممّا كان عليه في النحو. إذ يتوقف استعماله في النحو على "الأمثلة الصناعية التي تساق عادة منسوبة إلى زيد وعمرو لقصد تثبيت القواعد وبيانها وكذلك في سوق النصوص والتعليق عليها عمّن جاوزوا عصر الاستشهاد من الشعراء والناطقين باللغة"(13).

وهو بذلك يقل درجة- في النحو- عن الاستشهاد،إذ لا يرقى لدرجة التقدير التي ينالها شاهد ينتسب لعصور الاستشهاد، ولا يكون ملزما مثله، وإنّما يكون هدفه "الإيضاح والبيان فقط"(14).

وهو إن كان عند النحاة أقل درجة في أهميته من الشاهد المنسوب إلى عصور الاستشهاد، فإنّ آخرين قد يجعلونه - في مجال المعاني- مرادفا للاستشهاد وبالمعنى نفسه، إذ يعرفه الدكتور علي القاسمي في معجمه بأنّه:"الإتيان أو الاستشهاد بقول سائر من مثل أو شعر أو نثر على كلام المتكلم أو خاطرة خطرت بذهنه"(15)

والمثل قريب من الاستشهاد وفي "اللسان": المثل: الشيء الذي يضرب بشيء وتمثل: إذا أنشد بيتا ثم آخر ثم آخر."(16)

تدور هذه المصطلحات كلها في فلك الاستشهاد بمعناه الأعم، وقد اهتمت الدراسات في مجال الشواهد القرآنية في المصادر البلاغية، بالوقوف عند الشاهد القرآني، تصنفه في بابه من البلاغة، تشرح وتعرض، وأحيانا تحلل تحليلا يتفاوت في مستواه الفني، أو تقف به عند القضايا البلاغية، مناط الاستشهاد، لتقيم دراسة عليها.

وقد ربط كتاب "الإيجاز" بين البلاغة وعلم الإعجاز، وهدفه العودة بالبلاغة إلى الذوق والطبع، وربطهما بدراسة الإعجاز القرآني، والإكثار من الأمثلة والشواهد القرآنية والأدبية وتحليلها بالأسلوب الأدبي الواضح الذي ييسر تلك القواعد الجافة، ويجعلها وسيلة لفهم القرآن وإدراك بعض أسراره في البلاغة والنظم. وقد قاد الاهتمام بقضية الإعجاز "العلوي" إلى الإكثار من الأمثلة القرآنية، وتقديمها على غيرها في الاستشهاد والبرهنة.

ثانيا: منزلة الشاهد ومكانته في الدرس اللغوي:

لا أحد يشك في مكانة الشاهد في علوم العربية، ذلك أن الشاهد يعد عصبها في مرحلة التنظير، وهو المادة في مرحلة التطبيق والشواهد لا يقف تأثيرها عند هذا الحد، بل إنها لتكوّن في مجموعها تراثا حضاريا للأمة، ولا يمكن التفريط فيه فضلا عن تجاهله؛ لأنه مرتبط بثقافة هذه الأمة "ارتباطا وثيقا من وقت مبكر من تاريخها، لما يختزنه من موروث ثقافي وحضاري ففي حياة العربي، ولما له من أثر كبير في تكوينه الأدبي المعروف حتى غدا ثابتا من أهم ثوابتها[17]. لذلك كانت العناية بالشاهد قديمة، فهناك من يشرحه ويبينه، وهناك من يوثقه وينسبه، فهذا أبو النحاس (ت 338ه) يشرح أبيات سيبويه، وذاك الخوارزمي يشرح شواهد الإيضاح، وغيرهم كثر.

ثالثا: الشاهد البلاغي

ينطوي الشاهد البلاغي على عمليّة اختيار تلقائي للشاهد تخضع لطبيعته ومادته، بحيث ينظر إلى معناه خارج إطار اللغة المباشرة وفق دلالات جديدة ناتجة عن العلاقات والتراكيب الجديدة، "وإن هناك فارقا دقيقا بين التوجه اللغوي الخالص، والتوجه البلاغي، فإذا كان اللغويون يحتفون بشعر فترة الاحتجاج التي ترتبط بمكان وزمان محددين، فإن البلاغيين قد تجاوزوا هذه النظرة اللغوية وتعاملوا مع الإبداع في مراحله المختلفة دون نظر تقويمي إلى قديم أو محدث"[18]، حيث " حدد اللغويون فترة الاحتجاج بانتهاء العام 180ه، بسبب فساد الألسن بعد ذلك"[19].

أما في البلاغة، فلم تحدد فترة معينة لقبول الشاهد البلاغي، وإنما اعتمدوا في ذلك على حسن الاختيار الذوقي للشاهد البلاغي وما يشتمل عليه من درجات الإبلاغية.

فالمهم في المسألة المادة التي يتوفر عليها الشاهد، دون النظر إلى الفترة الزمنية للشاعر أو القبيلة التي ينتمي إليها، وهذا يختلف عن موقف النحاة الذين حصروا الشاهد النحوي الذي يعتدّ به بقبائل قيس، وتميم، وأسد وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين من القبائل الحجازية"[20]

ويبدو أن شواهد النحو والصرف واللغة هي من أكثر شواهد علوم العربية ثباتا؛ لارتباطها بالقواعد التي بنيت عليها، حتى شكلت جزءا لا ينفصل من ثقافتنا؛ ولهذا لا نعجب من العناية التي حظيت بها على مر العصور.

وإذا كانت سمة الثبات قد وجدت في شواهد النحو والصرف والمعاجم وقضايا اللغة، لأنها تتعامل مع قواعد وثوابت، فما هو حال الشاهد البلاغي الذي يستشهد به في قضايا ذوقية جمالية؟

الأصل أنّ الشاهد البلاغي ينبغي ألا تحده حدود لا في نوعه ولا في زمن الاحتجاج به ولا في طريقة تحليله؛ لأن الهدف من هذا الفن هو تربية الذوق، ولا أحد يماري في أثر الشواهد، ذلك أن الشاهد البلاغي يمتاز عن غيره بميزات ترجع إلى وظيفته والمجال الذي يتحرك به. لذا بدأت البلاغة العربية بدايات ذوقية كما هو الحال بالنسبة لحركة النقد الأدبي، فكانت عبارة عن ملاحظات ودراسات تعتمد على الفطرة والطبع حال الشاهد الشعري في أوليات البلاغة العربية، وبقيت على ما هي عليه في العصرين الإسلامي والأموي، لكنها بدأت تميل إلى الناحية التحليلية التي تجمع بين القاعدة والذوق؛ لأن البلاغة في العصر العباسي بدأت تسير نحو النضوج والتطور، وقد استقت مادتها من القرآن الكريم أوى ومن ثم الشاهد الشعري، فاتجهت إلى دراسة الشعراء وصورهم البيانية والبديعية المبتكرة، وقد عمل البلاغيون في هذه الفترة على "رصد ما سبقهم من شواهد صالحة من نماذج الشعر الجاهلي والإسلامي، كما تناولوا من كان قريبا منهم كما فعل ابن المعتز في كتابه البديع، حين استشهد بشعراء مثل بشار وأبي نواس والعتابي وغيرهم، حيث تعامل مع الجميع على مذهب انتقائي يبدأ بالجاهليين والإسلاميين ثمّ المحدثين"[21]

إن الشاهد البلاغي القديم لم يكن جماليا في التركيب والتزويق فحسب، بل عبّر كذلك عن جانب وظيفي في التعبير عن شؤون الناس الاجتماعية النفسية والحضارية، فجميع الشواهد تؤول إلى الإمتاع المفيد البياني للفرد والمجتمع وتقديم الخدمة الهامة، حيث جاءت مضامينها معبرة عن حياة الأسر وهمومهم وتطلعاتهم[22]. وارتبط استخدام الشاهد البلاغي بعلامات ناتجة عن اهتمامات الأفراد والجماعات وحاجاتهم ونزعاته. ولعلّ هذا العنصر من العناصر التي حددت وجهة الشاهد ونوعه، ومدى تأثيره وتوظيف مضمونه مع الغاية المقصودة لأداء رسالته بين الناس والمتلقين بوجه عام.

فأما وظيفة الشاهد البلاغي فهي القصد إلى كشف الجوانب الفنية والأبعاد لدلالية للتركيب الجميل، ومن هنا كان لابد أن تكون النظرة إلى الشاهد ر موحد، بل متجددة مع كل دراسة، متميزة مع كل تحليل، وهذا بخلاف الشاهد النحوي والصرفي لذي يورد لقضية محددة وقاعدة معينة.

وإذا كانت الشواهد الأخرى قد يكتفى منها بتعيين الشاهد ووجه الاستشهاد. فإن شواهد البلاغة تحتاج إلى نظر عميق في التحليل أسرار الجمال وبيانها دون التقيد بزمن محدد أو نمط معين.

والذين درسوا البلاغة لمحوا ما أصاب الشاهد البلاغي بعد عهدها الزاهر على يد عبد القاهر الجرجاني من تراجع، فجاءت إشارتهم إلى التكرار والنمطيّة والنقل، فيشيد الشيخ المراغي (ت1345هـ) أنّ عبد القاهر كان إماما لأهل هذا الفن (البلاغة): "يقتدون به في وضع هذه المباحث، وطريقة شرحها وبيانها، وأخذوا الأمثلة والشواهد التي ذكرها في كتبه ولم يحيدوا عنها. حتى قيل وبحق ما قيل: إنّ من جاء بعده عيال عليه..."[23]

كما أن مجال الشاهد البلاغي أرحب، والاختيار فيه أوسع أفقا، فهو يشتمل كلام خلص العرب، وكذلك كلام المولدين، بينما لا يستشهد علماء اللغة والنحويون إلا بشعر حقبة زمنية محددة فأبو نواس (ت199هـ) ومن عاصره ومن جاء بعده خارج نطاق الاستشهاد عندهم.[24] وكما قال ابن رشيق (456هـ) "فالمولدون يستشهد بهم في المعاني كما

يستشهد بالقدماء في الألفاظ"[25]، وهذا الاتساع في مجال الاستدلال أتاح للشاهد البلاغي التنوع والتميز[26].

رابعا: أنماط توظيف الشاهد البلاغي عند العلوي:

تعددت أنماط توظيف الشواهد في كتب البلاغة العربية، بناء على طريقة عرض الشاهد، والغاية من الاستشهاد، والمنهج المتبع في تحليله، معياريا يقف على موضوع المعيار البلاغي فيه، أو فنيا يتتبع موضوع المزية، وبلاغة الشاهد للوصول إلى تحليل بلاغي متكامل للشاهد القرآني. وفي هذا الإطار، يمكن الوقوف على هذه الأنماط للشواهد القرآنية فيما يأتي :

1- التوظيف التمثيلي:

وهو لا يقدم تحليلا للشاهد، ولا تذوقا لما به من فنون بلاغية، وقد لا يعلق عليه بأيّ تعليق، وإنّما يوظف مثالا على القانون أو القاعدة أو المعيار البلاغي عاما وفرعيا، بغرض الاستشهاد به والتمثيل له، والبيان والتوضيح للمعيار البلاغي. ويكثر هذا النمط من الشواهد في الحديث عن الفنون البلاغية، يمثل له بأمثلة من التراث، ليؤكد أنّه يحيا في نصوصها، وهذا النمط من التوظيف هو أكثر الأنماط التي استخدمها العلوي في إيجازه، إذ كان يعرّف الفن البلاغي ثم يمثل له بالشاهد القرآني أو الشعري، وهذا التوظيف كثير في كتب البلاغة، هذا المثال عند العلوي: في الباب الثالث من علوم الكتاب، وهو علم البديع، من النمط الثاني ومنه وهو الضرب التاسع المعنون باسم "الطباق" : ويقال له المطابقة أيضا، وهو أن يجمع في الكلام بين ضدين، واشتقاقه من قولهم: طابق الفرس إذا وضع رجله في السير مكان يده[...] قال تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ [التوبة: 82][27]، وقوله أيضا: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: 18]. وقس على ذلك شواهد كثيرة في أبواب ومباحث أخرى يوظفها دون تحليل ولا تذوق ولا حتى تعليق.

ونجد الكثير من البلاغيين واللغويين يوظفون مثل هذا النمط، مثل ابن المعتز في الباب الثاني من البديع، وهو التجنيس: وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر أو

كلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها[...] قال تعالى: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [النمل: 44]، وقال أيضا: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ﴾ [الروم: 43](28).

وكذلك الباقلاني في حديثه عن الإيجاز، يعرفه ويمثل له بشاهد فيقول:" أما الإيجاز ويمثل فإنّما يحسن مع ترك الإخلال باللّفظ والمعنى فيأتي باللّفظ القليل الشامل لأمور كثيرة، وذلك ينقسم إلى حذف وقصر[...] والإيجاز بالقصر كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[البقرة: 179] وقوله : ﴿ يَحْسِبُون كُلّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِم هُمُ العَدُوُّ﴾ [المنافقون: 4] وقوله: ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُم على أَنْفُسِكُم﴾[يونس: 23] (29)".

عرف ابن سنان في كتابه "سر الفصاحة" السجع، ووضع له المعايير والأقسام، ثم مثل له بعدد من الشواهد القرآنيّة، منها : قوله تعالى: ﴿وَالطُّور وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ، فِي رِقٍّ مَنْشُورٍ، والبَيْتِ المَعْمُورِ ﴾[الطور: 1- 4]، وقوله عزّ اسمه: ﴿طَه، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى، تَنْزِيلاً ممَّن خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمَاوَاتِ العُلاَ، الرَّحْمَان عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾" [طه: 1-5] (30). واستشهد بعد هذين الشاهدين، بشواهد أخرى من القرآن الكريم دون تحليل ولا تعليق.

وهذا ما فعله العلوي في توظيف الشواهد ذات الطابع التمثيلي وهي كثيرة، فمعظم المباحث كانت تحتوي على مثل هذا التوظيف، إذ نجده سار على طريقة من سبقوه في هذا الجانب.

فقد كان منهجا متقاربا، وهو منهج ليس ببعيد عن منهج تناول الشواهد في مجال النحو ،مما يؤكد أنّ منهج الدراسات البلاغية – في ذلك المجال – ليس إلا تاليا سار على درب سابق،كما كان الحال زمنيا، ومن ثم أعزو الأصل في باب الشواهد والفضل فيه إلى النحاة قبل البلاغيين من حيث الزمن والمنهج ودرجة الاهتمام، أما في البلاغة فقد كان نموذجا ومثالا ونمطا موثوقا ذا قيمة تراثية، تكسب ما مثل عليه توضيحا وتأكيدا وتعزيزا واحتراما لقدسية هذا الشاهد الديني أو التراثي، في كثير من استخداماته في كتب البلاغة العربية.

2- التوظيف المعياري:

المعايير في البلاغة هي الضوابط التي تضبط أصول هذا الفن، وقد تكون القوانين التي تحكمه، لكنّها لا تكوّن القواعد، إذ القاعدة ثابتة لا تتغير بينما المعايير والضوابط، وحتى القوانين منها قد يتغير ويعدل ويتطور. وتوظيف الشاهد يقف على موضع المعيار أو القانون أو الفن البلاغي، يشرح ويحلل ويوضح، وغايته التي يدور في إطارها الاستشهاد على المعيار البلاغي، والإبانة عنه.

إذن المعايير الضوابط التي هي أدوات ذلك الفن والمقياس الذي تقاس به، وهو وإن كان قريبا في معناه من القاعدة، لكن القاعدة ما وافقها كان صحيحا، وما خالفها كان خطأ وشادا أو خارجا عليها، بينما المعيار مقياس إذا وافقه حققت التمام، لكن فيه سعة لدرجة من الانحراف لا توصف بالصحة والخطأ، لكن بالبليغ والأبلغ الذي يعتمد بدرجة كبيرة على الذوق.

وما يميز هذا التوظيف للشاهد القرآني عن التوظيف التمثيلي هو الوقوف على منطقة المعيار بالتحليل والتوضيح، يجعل من هذا الشاهد نموذجا ومقياسا لذلك المعيار أو الفن البلاغي مدار الاستشهاد، بينما يتوقف دور الشاهد إذا وظف توظيفا تمثيليا على أن يكون مثالا يوضح به المعيار ويمثل به للفن البلاغي. ولكي نبيّن الأمر نقف عند توظيف الشاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: 179]، حيث وظفه العلوي في باب بيان الإيجاز وتفاصيل أسراره، الضرب الثاني: الإيجاز بالقصر من غير حذف فيه توظيفا تمثيليا، بعد أن عرّف هذا الفن البلاغي بقوله: "وحاصله أن يكون لفظه قليلا وتحته معان كثيرة، ولا يكون فيه شيء من الحذف، والعلم فيه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[البقرة: 179]"(31).

وقد وظف ابن المعتز هذا الشاهد القرآني في باب (المطابقة) توظيفا تمثيليا، بعد أن عرف هذا الفن: "يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد، فالقائل لصاحبه أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع[...]، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾[البقرة: 179]"(32).

بينما استشهد به "ابن سنان الخفاجي" في باب الإيجاز كالعلوي، وبيّن به معيار الإيجاز بأن تعبر عن معنى كثير بألفاظ قليلة، حيث يقول: "ومن أمثلة الإيجاز والاختصار قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[البقرة: 179]"[33].

ركز العلوي في هذا الشاهد بالتحليل والتوضيح على موضع المعيار فيه، أخرجه من كونه مثالا يمثل به على فن بلاغي إلى معيار ومقياس يقاس عليه كل شكل من أشكال الإيجاز بالقصر. وكثير من الشواهد وخاصة القرآنيّة التي وظفها العلوي جاءت على هذه الشاكلة من التوظيف المعياري الفني.

3- التوظيف المعياري الفني:

هو توظيف يتذوق مواطن الجمال في الشاهد، ويقف على ما به من مزايا بلاغيّة، يستمتع ويمتع بها من خلال حسن التذوق المتمرس المتدرب المسبوق بالموهبة الأدبية، ثم حسن العرض الذي يبرز تلك المتعة البلاغية بالقدر الذي يداعب أعماق المتلقي، ويشبعه بالمعنى المراد بحال لا يمكن معه إلاّ تمام الاعتقاد والتأثر به.

وإذا كان التوظيف المعياري للشاهد القرآني يقف على موضع المعيار، يستشهد منه على المعيار البلاغي، فإنّ التوظيف الفني يقف على الكلمة في الشاهد يبيّن لماذا كانت هذه الكلمة أجمل من تلك، ولماذا كان هذا المعنى لا يناسبه إلاّ ذاك، ويتضح ذلك عند العلوي من استشهاده بقوله تعالى: ﴿والّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾[النور: 39] "فهي كما حقق الله يحسبه الظمآن ماء إذا جاءه لم يجده شيئا، فأعمالهم يُرى لها ولا حاصل لإحباطها بالكفر والتلبّس به" [34].

وقف العلوي عند كلمة (الظمآن) ولماذا كانت أجمل في الاستخدام من كلمة أخرى ككلمة (الرائي) وفسر ذلك بقوله:" فأعمالهم يرى لها" [35]. إنّ النظرة إلى الذوق كقدرة وموهبة تصقل بالممارسة والدربة للنصوص الأدبية، فإنّ إعمال تلك الملكة وتوظيفها في الكشف عن خبايا العمل الأدبي من خلال الضوابط والمعايير الفنيّة لعلم البلاغة.

4- التوظيف التفسيري:

لعلّ من السّمات الواضحة في منهج العلوي الاهتمام الكبير بالشواهد الأدبية، ويتسع هذا الباب ليشمل نماذج متنوعة من الشواهد التي تأتي في سياق شرح المصطلحات البلاغية، ومناقشتها وتوضيحها، وأمثلتها كثيرة في كتاب الإيجاز يستشهد العلوي ببيت شعري لظاهرة بلاغية ما ثم يردفه بآية قرآنية حتى يشرحه ويفسره، أو يشرح الكلمة الغامضة مباشرة بعد البيت الشعري.

من ذلك أن يستدل من الشاهد القرآني على تفسير معنى كلمة ببيت شعر أو غيره من فنون القول، ومن ذلك ما ورد في قوله،"ومن فساد المعنى قول النابغة":

تَجِيد ءعنْ أسْتُن سُودٍ أسَافِلُه   مَشْي الإمَاء الغَوادِي تحْمِلُ الحِزَاما

الأستن شجر بشع المنظر تسميه العرب رؤوس الشياطين وجاء في بعض التفاسير في قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[الصافات : 65]"[36].

5- التوظيف النموذجي (الشاهد النموذج):

وهو الشاهد الذي يصير من كثرة دورانه في كتب البلاغة - في ذات موضوع الاستشهاد- نموذجا في بابه. وهو شاهد يتّسم بوضوح المعيار أو الفن البلاغي فيه بصورة تدفع البلاغيين إلى تصديره في بابه حتى يصير عنوانا لذلك الباب. ومن ذلك استشهادهم في باب الإيجاز بالقصر بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[البقرة: 179]، واستشهادهم في باب الإيجاز بالحذف بقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 62]، والتشبيه التمثيلي بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:5]، وغيرها من شواهد صارت نماذج في أبوابها. وهذا التوظيف للشاهد مشهور عند البلاغيين وحتى النحويين

خامسا: الشاهد البلاغي وتهمة الجمود:

يتهم الشاهد البلاغي بالجمود بعد عصر ازدهاره على يد عبد القاهر الجرجاني (ت471ه)، وتسللت إليه النمطية المعروفة في كثير من شواهد العربية، فأصبح الدارسون، يرددون شواهد معية محفوظة لا يحيدون عنها ولا يتميزون حتى في طريقة تحليلها وقراءتها.

يقول محمد أمين المؤدب: "والمتأمل في مجال الشعر وللعروض والنحو والبلاغة، يدرك مظاهر ذلك الثبات دون كبير عناء، وتأسيسه على ذلك فإن البلاغيين –عبر تاريخ البلاغة- قد حددوا للبلاغة العربية موضوعها، ورسموا لها إطارها، كما حددوا لها المادة التي يستند إليها الدرس البلاغي وفي مقدمتها الشاهد الشعري..."[37]

يبدو مفهوم الشاهد في الخطاب البلاغي العربي مختلفا عن نظيره في الخطاب اللغوي. ونحصر هذا الاختلاف في مستويين:

1- أصبح مفهوم الشاهد في الخطاب البلاغي ذا دلالة واسعة، ولم يعد محصورا بقيود زمانية ومكانية؛ ومجال تجريب، قابل للاستبدال والتعويض وكل الشواهد البلاغية إذا تنزلت في النص تساوت في عين المتفحص[38].

2- لم تعد وظيفته تقتصر على إثبات القواعد والتمثيل لها، إنما تعدت ذاك إلى البحث عن خصائصه ومزاياه الفنية؛ فمن خلاله يبرز البلاغيون تفاوت الأساليب والتراكيب، ويتناولون مواضع الحسن والقبح في الكلام. ويأخذ الشاهد في البلاغة موقعا خاصا؛ فهو هنا موضوع للدراسة والتطبيق، ومحل الحكم والمعيار، وهو بهذا يكون في سياق المباحث الجمالية[39]. وتأتي أغلب النماذج والشواهد في النص البلاغي ضمن وضعيتين:

الأولى: ويكون فيها الشاهد وظيفيا في السياق البلاغي؛ أي أنّه مباشرة يعين الظاهرة البلاغية.

الثانية: يكون فيها الاستشهاد لمجرد الحكم والإثبات، قصد ترسيخ الظاهرة البلاغية.

ولما كان الاستشهاد شكلا ووظيفة في آن واعتماده يختلف من مصنف بلاغي إلى آخر بحسب اختلاف الرؤى وقيمة الشاهد، إنّما تتحدد مما يكتسبه من أبعاد ودلالات.

الخاتمة

يبدو الشاهد البلاغي القديم مكونا محوريا تحركه غايات البحث، ومقاصد البلاغيين، وانسجاما مع هذا التطور، فإن قيمة الشاهد وأهميته ومستويات تناوله يستجيب لما يستجد من أغراض التأليف وحاجاته.

ونخلص إلى أن المرحلة التي جاء فيها العلوي هي مرحلة الثبات والاستقرار، وهي المرحلة التالية لمرحلة عبد القاهر الجرجاني، ويمثلها السكاكي (ت626هـ) والقزويني (ت742هـ) والشراح، وفيها اكتسبت الشواهد البلاغية سمة الثبات والاستقرار، حيث عمد في هذه الرحلة إلى فكرة الشاهد النموذج فاعتمدوا على الشواهد التي سبقت بشكل أساسي وإن أضافوا إليها في الكم كما فعل العلوي، ولكنهم في الكيف لم يكن لهم سوى تصنيف وتقسيم وتبويب هذه الشواهد في أبوابها التي سبقت وعلى نفس المعايير التي استخدمت فيها من قبل. والعلوي بهذا القسم الذي لخص فيه ما سبقه من كتابات في البلاغة قبله، ومع سيطرة الثبات والاستقرار لمعايير البلاغة وشواهدها في تلك المرحلة، إلا أنه كانت محاولات للعودة بالشواهد للتذوق البلاغي الذي كان عليه عند عبد القاهر، ومن بينهم العلوي (ت749هـ) في كتابيه الطراز والإيجاز المتضمنين لأسرا البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز.

الهوامش

1- ابن منظور،لسان العرب، مادة"شهد"،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، ج7 1999، ص222،223.

2- يحي عبد الرؤوف جبر، الشواهد اللغوية، مجلة الأبحاث للنجاح المجلد 2، 1992، ص256.

3- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، ت: عبد الرحيم محمود، المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1979، ص 243

4- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج1، ط3، القاهرة 1972، ص517.

5- علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، القاهرة، 1938، ص109.

6- فرانسوا مورو، البلاغة، المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة محمد الولي وعائشة مرير، إفريقيا الشرق، بيروت 2003، ص51.

7- عبد الكريم محمد الأسعد، أحاديث في تاريخ البلاغة، دار العلوم الرياض، ط1، ص41.

8- أبو هلال العسكري، الصناعتين،ت: علي محمد البجاوي،محمد فضل إبراهيم،المكتبة العصرية، بيروت،1998،ص177،ص268.

9- بيومي أبو موسى، الشواهد البلاغية في كتاب أسرار البلاغة-دراسة وموازنة-رسالة مخطوطة بكلية اللغة العربية بالأزهر،2004،ص10

10- نجاح عبد الكريم الظهار،الشواهد الشعرية في كتاب دلائل الإعجاز، جامعة أم القرى،1987،ص33.

11- محمد عيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة،عالم الكتب، القاهرة، ط1988،3،ص86

12- المرجع نفسه، ص 86.

13- المرجع نفسه، ص 85.

14- المرجع نفسه ، ص نفسها

15- علي القاسمي، معجم الاستشهادات، مكتبة لبنان، بيروت، ط2001،1، المقدمة، ص17.

16- ابن منظور،لسان العرب، مادة"شهد"

17- إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية، بيروت، ط1، 1992، ص05.

18- المصدر نفسه، ص25.

19- المصدر نفسه، ص44.

20- الشواهد الشعرية في كتاب أسرار البلاغة، توثيق وتحليل بلاغي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية اللغة العربة، عايد سليم الحربي، المقدمة.

21- محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة ثانية، ص23.

22- مصطفى الجوزو، الشاهد الشعري في البلاغة العربية (نموذج المتنبي)، عالم الفكر، العدد 46، السنة الثامنة، 1987.

23- أحمد مصطفى المراغي، تأريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1950، ص57.

24- محمود شكري الألوسي، إتحاف الأمجاد في ما يصح بعد الاستشهاد، ت: عدنان عبد الرحمن الدوري، مطبعة الإرشاد، بغداد 1982، ص64- 65.

25- ابن رشيق، العمدة، تحقيق النبوي شعلان، الخانجي، مصر 2000، ج2، ص 985.

26- انظر مقال الشاهد البلاغي وإشكالية (النموذج)، مجلة جذور، العدد 5، ص 393.

27 - بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1987، مادة[طبق].

28 - عبد الله بن المعتز، البديع، ت: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1990، ص108.

29 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ت :السيّد أحمد صقر، دار المعارف، ط 5،ص263.

30 - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ت: علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994، ص165.

31 - العلوي، الإيجاز، ص271.

32 - ابن المعتز، البديع، ص124.

33- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص209.

34- العلوي، الإيجاز، ص341.

35- المصدر نفسه، ص341.

36- العلوي، الإيجاز، ص85

37- انظر محمد أمين مؤدب، الشاهد البلاغي وإشكالية "النموذج": قراءة في اسرار البلاغة للجرجاني، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، 2001، مج 3, ج 5، ص 393.

38- مراد بن عياد، مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني، ج1، ص9-10.

39- المرجع نفسه، ج1، ص16

قائمة المصادر والمراجع :

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة"شهد"،دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط3،ج7 ،1999.

2- يحي عبد الرؤوف جبر، الشواهد اللغوية، مجلة الأبحاث للنجاح المجلد 2، 1992.

3- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، ت: عبد الرحيم محمود، المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1979.

4 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج1، ط3، القاهرة 1972.

5- علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، القاهرة، 1938.

6- فرانسوا مورو، البلاغة، المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة محمد الولي وعائشة مرير، إفريقيا الشرق، بيروت 2003.

7- عبد الكريم محمد الأسعد، أحاديث في تاريخ البلاغة، دار العلوم الرياض، ط1.

8- أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي،محمد فضل إبراهيم،المكتبة العصرية، بيروت،1998.

9- بيومي أبو موسى، الشواهد البلاغية في كتاب أسرار البلاغة-دراسة وموازنة-رسالة مخطوطة بكلية اللغة العربية بالأزهر،2004.

10- نجاح عبد الكريم الظهار،الشواهد الشعرية في كتاب دلائل الإعجاز، جامعة أم القرى،1987.

11- محمد عيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة،عالم الكتب، القاهرة، ط3 ،1988,

12- علي القاسمي، معجم الاستشهادات، مكتبة لبنان، بيروت، ط1 ،2001،.

13- إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية، بيروت، ط1، 1992.

14- عايد سليم الحربي، الشواهد الشعرية في كتاب أسرار البلاغة، توثيق وتحليل بلاغي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية اللغة العربة.

15- مصطفى الجوزو، الشاهد الشعري في البلاغة العربية (نموذج المتنبي)، عالم الفكر، العدد 46، السنة الثامنة، 1987.

16- أحمد مصطفى المراغي، تأريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1950.

17- محمود شكري الألوسي، إتحاف الأمجاد في ما يصح بعد الاستشهاد، ت: عدنان عبد الرحمن الدوري، مطبعة الإرشاد، بغداد 1982.

18- ابن رشيق، العمدة، تحقيق النبوي شعلان، الخانجي، مصر، ج2، 2000.

19- محمد أمين مؤدب، الشاهد البلاغي وإشكالية "النموذج": قراءة في اسرار البلاغة للجرجاني، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، 2001.

20 - بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1987.

21 - عبد الله بن المعتز، البديع، ت: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1990.

22- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيّد أحمد صقر، دار المعارف، ط 5.

23 - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ت: علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994.

24- مراد بن عياد، مدونة الشواهد في التراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني، ج1.